الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد التاسع عشر. ٢٧ شعبان سنة ١٣٥٦ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
١١٦٢	الطيار الذهبي فى قصر يوسف	للكاتبة الايطالية ماتيلدا سيراو ...	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
١١٧٤	عادة البحر	مشهد من مسرحية الكاتب النرويجى ابسن	بقلم الأستاذ خليل هنداوى .. ...
١١٧٧	الغرفة الزرقاء	للكاتب الفرنسى بروسبير مريميه .	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب ...
١١٨٢	ذو الغمد	للكاتب الروسى أنطون تشيكوف .	بقلم الأديب جورج سلستى .. ...
١١٩٣	فتشتر يوفيفانى	عن كتاب الأطفال الممتازين	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..
١١٩٦	سحابة	أقصوصة موضوعة	بقلم الأستاذ أديب عباسى ... ...
١٢٠١	كورنى فاسيليف	للفيلسوف الروسى تولستوى	بقلم الأديب أحمد فتحى مرسى ...
١٢٠٩	اعترافات فتى العصر	لألفريد دى موسيه	بقلم الأستاذ فليكس فارس .. ...
١٢١٨	الأوذيسة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...

الطيار الذهبي في قصر يوسف

للكاتبة الأيطالية ماتيلدا سيراو

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

ماتيلدا سيراو Mathilde Serao من شهيرات القصصيات الايطاليات . في أوائل هذا القرن عاشت ووضعت كتبها في مدينة نابولي بأسلوب مبتكر جذاب . وقد نقلت بعض قصص من تأليفها إلى اللغات الأوروبية ؛ وقد زارت مصر قبيل الحرب ووضعت قصة خلابة تربط بين الماضي والحاضر وتجمع الشرق والغرب وجعلت بعض مناظرها في ظلال الآثار المصرية الخالدة وبطلها جيوفاني دي ڤاڤا طيار إيطالي ومعشوقته لادي شارلوت الانجليزية الثرية . وقد شادت هذه اللادي السكسونية لفتاها حبيبها قصراً وصفته المؤلفة بالقصر اليوسفي إشارة إلى ما فعلت امرأة العزيز ... وقد وقعت في ذلك القصر حوادث جسام صاغتها المؤلفة القديرة أجمل صياغة وأفرغتها في أبدع القوالب

وصف القصر كأنك تراه

بدأ الشيخ العربي يروى لى قصة قصر يوسف في ظلال العمد الشاهقة عند معبد رمسيوم :

« كان السائر على شاطئ النيل بقرية من « الدير البحري الذى شادته الملكة المسترجلة حتشبسوت يرى بناء صغيراً يكاد يكون لجماله كالأمير المتخفى ، يدل مظهره البرئ على البساطة والتواضع ، وتنطوى حقيقته على العظمة والفخامة .... فالقصر الصغير الجميل لا يرى من ظاهره ما يدل على ما انطوى عليه من المفاخر والمحاسن وآيات الفن وضروب الجمال ودلائل حسن الذوق ومهارة الصانعين ولباقة لادى شارلوت التي جعلت من هذا البناء الأثري متحفاً للجمال الحي ومصدراً لوحى الفنون التى تجلت فى غرفه . وأول ما يسترعى نظر الرائى جلال الشخصية التى أشرفت على إعداده وتأثيثه وتنسيقه ؛ وإن الزائر ليحار حيال القدرة الجبارة التي تمكنت من إدراك أدق أسرار الفن والجمال التى ازدهرت فى عصر يوسف فنقلت معانيها الخفية والظاهرة ، وأفرغت ثمار النعمة والفنون الحديثة فى قوالبها القديمة الثابتة . وإن تعليل ذلك لمهين على من يعلم أن عقل مستر « سترينج بيرد » العالم الأثرى الشهير الذى شاد القصر ورفع دعائمه وأنفق فى ذلك معظم ما كان يملك ، وقضى ثلاثة أرباع حياته فى الدرس والبحث والتنقيب والتحقيق حتى وصل إلى الصورة الأخيرة التى نسق عليها القصر ، فتضافر هو وعقل شارلوت على إيجاد تلك المعجزة الفنية التى بنيت من حجر وصخر ومرمر وبلور فكانت إلى وصف الصوغ أقرب ، حتى ليخيل إلى الرائى أنه يمتع نظره بجوهرة يتيمة فذة يرى أضواءها وهو فيها ، ويأخذ ببصره تلألؤها وهو محيط به ، ويشع حوله فيرى كالحالم أنه يتقلب فى فراش من الخز والديباج فى مقصورة من الماس المضيء بذاته لذاته ...

كان الزائر يمر بالمدخل الكبير للقصر بين عمودين من المرمر الناصع البياض مربعين لا معين جلب معدنهما النفيس من الصحراء الغربية ، وإلى

جنب كل منهما تمثال لأسد رابض منحوت من الجرانيت القاتم ، وقد جعلا رمزاً للحراسة والحماية واليقظة ، كما جعل على رأس كل عمود تمثال لنسر يهم بالتحليق وقد نشر جناحيه وخفض رأسه وحدق بعينيه ؛ وكان هذان النسران أجمل رمز لفن جيوفانى ، المهندس الطيار . وإنها لمصادفة عجيبة فرحت بها لادى شارلوت فرحاً جماً ، فلو أنفقت وزنهما ذهباً ما استطاعت تقدير الفكر الذى أوحى إلى المعمار وضعهما ، فكأنه رأى بعين الخيال ذلك الرجل السعيد الذي سوف ينزل بالقصر ويكون قلب مالكته ملكاً له

فاذا ما عبر الداخل عتبة ذلك البهو الفخم المحروس فى أسفله بالأسود وفى قمته بالنسور أخذت عينه وراء كل أسد لبضعة أقدام من أذنابها التى أقمت عليها بتمثالين لعملاقين من الزنوج كأنهما واقفان لحراسة ما وراء المدخل واضاءة سبيل الزائر الذى توسط بستان القصر . وإنه لمن المهندسين المعماريين من تشرف نفوسهم على المستقبل فيلمح أحدهم من بوارق الإلهام ما يقتضي تمام الفن أن يوحى إليه ليخرج العمل الكامل . فإن الفنان قد وضع فى يد كل منهما مصباحاً على شكل رأس امرأة قبض الزنجى بأنامله على ضفائرها ، وتنبع من رأسيهما حزمتان من النور الأزرق ، فاذا تحرى الناظر مصدر الضوء وجده خارجاً من أعين المرأتين فكان لذلك فى نفسه رهبة أى رهبة . فإذا فرغ عجبه لهذا المنظر أخذ بصره بحوض بيضاوى الشكل من المرمر الناصع البياض وعلى رأس كل طرف من أطرافه تمثال بديع لفتاة كاملة الخلق ممشوقة القد ناعمة الطرف قبضت على ثديها بيديها فتفجرت منهما المياه كما يتفجر لبن المرضع فى فم طفلها المحبوب ؛ والماء المتدفق على هذه الصورة العجيبة ينصب فى الحوض راسماً فى طريقه قوساً جميلاً لا يسمع له صوت لدى خريره ، ويزيده بهجة ورواء سقوط أشعة زرقاء هادئة مسلطة من مدخل البهو على تلك الينابيع الأربعة المتدفقة من أثداء الفتاتين . فإذا ما أشبع الناظر نفسه بالنظر إلى الحوض والناقورة والفتاتين صعد بضع درجات من سلم واسع الأرجاء مصنوع من الجرانيت الوردى زينت أطرافها بآنيات خزفية ملونة تتدلى منها أغصان الأسبرجوس ، كأنها شعور خضراء لرأس خفى . وكان الباب الداخلى مستطيلاً وعلى جانبيه مرآة من المعدن يتبين فيها الناظر صورته واضحة جلية ، وعلى حافة كل مرآة تمثال من خشب الجوز التركى لظبى فاتن راقد فى اطمئنان يرنو بعينيه النجلاوين المصنوعتين من الصدف والعقيق الأسود إلى الناظر في المرآة

ثم يستأذن الداخل على بهو فسيح قد صفت على جوانبه مقاعد من الفسيفساء على صور تمثل الصيد والقنص . أما أرض البهو فكانت من الفسيفساء ، تمثل بحيرة عظيمة تسبح فيها أسماك شتى الألوان والأشكال والحركات ، تتخللها أصداف وأحياء مائية أخرى كقنديل الماء والأخطبوط ؛ وفى وسط الصورة الرائعة الحسن

حوت عظيم فاغر فاه كأنما يريد أن يبتلع مايدنو منه من صيد البحر ، وركبت فى رأسه عينان من الياقوت الأحمر . أما زرقة الماء التى تمثلها الفسيفساء فكانت مصنوعة من شظايا رقيقة من «أزرق البحر» الفائق الجمال

وكانت جدران البهو مزدانة بتصاوير تمثل صيد البر ، فمن طراد بين كلاب سلوقية وغزلان مشردة وبزاة تحلق فوق رؤوس ظباء لتعود إلى صاحبها بالغنيمة الباردة ، إلى مناظر صيد الطيور فى برك المياه وسط الحشائش الخضراء ؛ فكان يخيل إلى الجالس فى البهو أنه متمتع بصيد البر والبحر ، حتى إذا مادعاه رب الدار إلى الدخول رأى أمامه وخلفه وعن يمينه وشماله أبواباً تؤدى إلى مختلف الغرف ؛ فعن يمينه غرفة الجلوس التى جعلها المعمارىُ بيضاوية على شكل حوض البستان وهى تؤدي إلى باب من الحديد المصقول لغرفة الطعام التى جعلت مستديرة على شكل المائدة ، وبينهما حجرة مستطيلة لاتتسع لأكثر من خوان الشراب وحوله مقعدان ، وفى جدرانها ينابيع من الفضة إذا حركها الساق سكبت ألواناً من الخمر المعتقة التي أوصت بها لادى شارلوت فى مصانع إيقوسه وشمبانيا وكروم توسكانيا وأقنيون ؛ وقد صنعت تلك الينابيع بحيث تتصل بخزائن صغيرة تملأ وتستنزف وتثلج من وراء الجدار . ولقاعة الشراب نافذتان تطل إحداهما على حديقة القصر ، والأخرى على منظر من ضفاف النيل ، بحيث يرى المطل الشمس والقمر لدى الشروق والغروب . فإذا ما اتجه الداخل صوب الشمال بدأ بغرفة مثلثة الشكل جعلتها ربة القصر للقراءة والعبادة . فى رأس المثلث معبد صغير تقف إليه كلما شعرت بالحاجة إلى الاتجاه إلى ربها . ولم يكن جيوڤانى بأقل حاجة منها إلى أوقات يقضيها فى ذلك الركن الركين ذاكراً سيدته العذراء ومولاه المسيح . وإن نعجب لشىء عجبنا للاختلاف بين عقيدته الكاثوليكية وعقيدتها البروتسية وقد جمع الحب بين الروحين ، وسوّى بين المذهبين ، وأزال الفروق كما أجرى فى عروقهما دماء جديدة للحياة التى تتدفق فى الشرايين ؛ والبهجة تدخل القلب فتنعشه ، والآمال تنهض بالنفس الحزينة فتقويها ، دأب الحب الناشيء فى قلبين متعطشين إليه . وقد حوت هذه المكتبة طائفة من أنفس الكتب القديمة والحديثة ولا سيما مؤلفات توماس هاردى ودانونزيو . ومن فرائد المؤلفات التى احتوتها وعد الزواج لمانزونى ؛ وكان جيوڤاني يطيل قراءته لاعتقاده أنه يبنى الأبطال ، فقد بنى روسيلى روسى حتى إنه ليحتفل فى كل عام بتاريخ صدوره

وأحضرت لادى شارلوت كتباً فى فن الطيران لتدخل السرور على قلب حبيبها إذا فاجأته بها . وينتهي رأس « مثلث المكتبة والمعبد » إلى باب صغير يؤدى إلى مخدع الرقاد ، وقد جعل هذا المخدع على هيأة بناء سداسى كأنه احدى خلايا النحل . ولا غرو فى ذلك فان العاشقين طالما تبادلا فيها لذة الحب ، وهي أحلى من الشهد . ولا عجب فان

شارلوت تصلح ملكة ، ولا يصلح جيوفانى إلا لخدمتها ، وقد جاءها طائراً كما تحلق ذكور النحل فى أفق السماء فى أثر الملكة يوم الغزل المشهود . فما أغرب المصادفة التى أوحت إلى المهندس بناء تلك الغرفة على تلك الصورة !

وينتهى أحد أضلاع هذه الخلية الانسانية المعسولة بغرفة الزينة التى جعلت على شكل محارة رمزاً إلى أن التى تتحلى فيها « درة » تربت فى أصداف غالية ؛ وينتهى أحد الأضلاع المقابلة بخلوة الحمام ، وقد تفننت اللادى شارلوت فى تنسيقها وتزيينها بأحواض من المرمر الملون ومواسير من المعدن الأبيض ومرآة من الفضة المصقولة ، وجعلت فى أركان الحمام رفوفاً من العاج ذات تعليقات وحمالات من المرجان حملتها بأدوات الزينة النادرة المثال ؛ وكانت مربعات القيشانى الفيروزية تعكس على الحوائط ألواناً بهجة

ولما كان مستر سترينج يريد قد زين غرفة النوم بتصاوير شتى لامرأة العزيز فى مختلف الأوضاع ، فتارة ناهضة من فراشها ، وطوراً راقدة وقد أسندت رأسها إلى معصميها ، فقد صورها فى إحدى اللوحات فى موقف المنتظر المتلهف ترقب موعد يوسف ، وفى أخرى صورة تجمعهما فى فراش واحد جعلتها زليخا فى غيبة يوسف لتفاجئه بها فى اليوم الموعود ، وفى الساعة التى كان لهـا ما بعدها ! وقد شاءت لادى شارلوت أن تجعل لنفسها من زليخا قدوة فلم تترك وضعاً من أوضاعها إلا وقلدتها فيه بتصويرها . وفى الحق أن الذين صوروا زليخا صوراً بارزة وأخرى غير بارزة ، وصوراً ذات ألوان وأخرى ساذجة ، لم يستطيعوا أن يجدوا ما يتفوقون به على صنع الذين صوروا لادى شارلوت . ومما يدل طوراً على الذكاء وتارة على التهوس السكسونى أن لادى شارلوت اتخذت من جيوفانى يوسف آخر ، فجعلت فى تصاويره بجانب صورها فى ملابس نفيسة من قميص إلى جلباب ، ومن قفطان إلى عباءة ، وكل ما اتخذه نبى العفة لباساً خلعته شارلوت على حبيبها بريشة الرسام ...

وكانت تلك التصاوير تزين مخدع النوم ومجلس الشراب وخلوة الحمام . أما غرفة الطعام فكانت مقاعدها من خشب « الأبنوس » المنزّل بالعاج وأسلاك الفضة ؛ وكانت جدرانها مزدانة بتصاوير يوسف وزليخا يتفكهان ويشمان رائحة الأزهار من باقات صفت لديهما على الخوان ، وصورة أخرى أضافتها لادي شارلوت تمثل عقائل المدينة وهن يقطعن أيديهن !!

وكان السرير فى غرفة النوم واطئاً رحباً وثيراً يشعر الراقد عليه بأنه قد أسلم جسمه إلى فراش يكاد لرقته ونعومته وطراوته وليونته يكون أحضان محبوب مشتاق ، وقد حشيت الوسائد والحشايا بأنفر الريش وأغلاه ، وغلفت الوسائد وما إليها بالحرير الأزرق ، وجعلت للسرير ستور من المخمل « الجنزارى »[1]

(١) هو لون الصدأ الذي يعلو النحاس ، وسط بين الأخضر والأزرق

وكان سقف تلك الغرفة شفافاً بحيث يرى الراقد فيها قبة السماء كما لو كان يرقب الأفلاك وهو لا يتكلف مجهوداً قل أو كثر . فكان لبزوغ القمر وتلألئه فى كبد السماء روعة فى نفس من يرى أشعته الفضية تنسكب انسكاب الغدير على الغرفة ومن فيها فتغمرها بسيال فضى ينعكس ضياؤه الأبهى على زرقة الرياش فيكون لذلك منظر من أبدع المناظر وأبهجها وأفتنها

أما غرفة الزينة التى أبدع الصناع زخرفها فقد جمعت بين الفن القديم والفن الحديث فوضعت فى صدرها منضدة من المرمر المعرق صفت عليه أوعية من المرمر الرقيق تحوى أطيب العطور وأروحها ، ومختلف الأدهان والمكاحل وأدوات تنسيق الأظافر وتطريتها ، وألوان ذهبية وياقوتية لتخضيب البنان ، وأدوات لتصفيف الشعر وترجيله وما تحتاج إليه النساء من أسباب التحلى والتزين ، كما حوت صواناً كبيراً للثياب صنع إطاره من خشب القرو ، وركبت ألواحه وجوانبه من البلور المزدوج بحيث لا تحتاج صاحبته للتنقيب عن الثياب فى ظلام الأخشاب . وقد جعلت فى خزائن من خشب عطرى علباوات من الفضة المبطنة بالقطيفة الزرقاء لصيانة جواهرها ومصوغاتها ومعظمها من الدراري اليتيمة واللآلىء النادرة ؛ وكان للياقوت الأزرق والفيروز والزبرجد أكبر نصيب من فصوص الأقراط والخواتم

وكان اللون الأزرق سائداً فى كل مكان . وطالما سئلت لادى شارلوت فى ذلك فأجابت : أليست السماء أجمل شىء فى الكون ، والبحر أبهى الألوان وكلاهما أزرق ؟ ثم بعد فان أولى الهدايا وأعزها عندى كانت ذات لون أزرق فتفاءلت بها وصار هذا اللون شعارنا ؛ وزادنى به تعلقاً أن حبيبى يفضله على ما عداه من الألوان . وفى عرفنا أن الدم الذى يجرى فى عروق ملوكنا أزرق اللون !

العاشقان بين نارين

لم يكن تدمير القصر اليوسفى الذى استقبلت فيه لادى شارلوت محبوبها جيوڤانى دى ناڤا المهندس الايطالى الطيار وليد المصادفة ، بل حدث ذلك التدمير بالنار نتيجة تدبير سابق بعيد الغور

فان لادي شارلوت التى أنفقت فى تنسيق القصر وتزويقه وتأثيثه وتجميله وتصوير جدرانه وتلوينها ما أنفقت من مال وصبر ، ولا سيما قاعة الرقاد التى جعلتها آية من آيات الابداع ومعجزة من معجزات الفن المصرى القديم ، وجمعت لها ما جمعت من أدوات الزينة وثمين الرياش ، وطرزت حواشيها بأنواع المخمل والسندس ، وفرشت أركانها بالذرابى المبثوثة ، وجعلت أطرافها بالطنافس الغالية ، وحلت حوائطها بالتصاوير البارزة التى تمثل مناظر العشق وأوضاع الغرام إلى جانب مجالس الشراب ومواقف الغزل ، كانت تظن أنها أعدت لليالى حظوتها بمحبوبها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ؛ وحسبت أن الدهر قد صفا لها وهادنها ، وأن الأيام عاهدتها على الهناء وكفت عن الغدر بها . ولكن لادى شارلوت فطنت إلى شىء وغابت عنها أشياء ونسيت

أن من سره زمن ساءته أزمان ، وأن الدهر قل ما يهادن بغير استعداد لواقع أخرى قد تكون أشد من الأولى وأقسى ، يعدها ليصلي المخدوعين بأمنه بنار محرقة من جحيمه . وإنها لفي ظلال الهناء ترشف كؤوس الحب مترعة ، في الليلة الرابعة من ليالي غرامها الخالدة وقد أسدل الظلام ذوائبه على سريرها ، وهي تناجي جيوفاني ، تناوله أشهى القبل وتبادله أرق الحديث وأطيبه ، ولسان حاله يقول :

تبات فؤادك في الظلام خريدة
تسقى الضجيع ببارد بسام

وإذا بها تسمع في الغرفة الملاصقة وقع أقدام خافت ؛ وكانت مرهفة السمع شديدة اليقظة حتى في سكرات الغرام فنهضت وحاول جيوفاني النهوض ليتبعها ، إلى غرفة الزينة التي اختارت لها اللون الأزرق وهو اللون المحبوب منهما المفضل لديهما على سائر الألوان . وكانت اللادي تلبس للنوم قميصاً من الحرير الأزرق وحول عنقها ذلك العقد الذي تلمع حباته المجموعة من الياقوت الأزرق، ويتدلى على عنقها البلوري وكتفيها الفضيتين شعرها الناعم القسطلي فاجتازت الغرفة بخطوات مسرعة وأزاحت بيدها الستار الذي يسدل فيفصل بين الغرفتين ، فيسمع جيوفاني من ورائه وسوسة الحلي وخرير الماء الدافئ ويشم رائحة العطر . وبقي جيوفاني في الفراش برهة في حال غريبة من اللذة والخوف عليها ، وفي انتظار عودتها إلى ذراعيه اللذين جعل إحداهما وسادة لرأسها والأخرى وقاية لصدرها ، دأب كل عاشق يحتضن معشوقته فهو يريحها ويحرص عليها ، يريحها كما تريح المرضع الحنون طفلها ، ويحرسها من خطر موهوم ، فكأنه يخشى أن تفلت منه في الظلام وهي به جد لاصقة .. ولكنه لم يجرؤ على تخطي مدخل الغرفة الزرقاء لئلا يخالف بذلك رغبتها فسمع همساً ، فعاد أدراجه ووضع يده على مسدسه الذي كان لا يفرط في صحبته مطيعاً في ذلك نصيحة والده رينا لدي دي دنافا : « عليك يا بني بثلاث تدرأ بها الأخطار : الهندسة والألسن والسلاح ، فالأولى للرزق والثانية للاغتراب والثالثة تلقى بها الرجال »

وقد ابتسم جيوفاني ابتسامة ألمية عند ما قبض على مسدسه ، وتذكر حكمة أبيه وقال في نفسه : « هأنذا أنفذ وصيتك يا أبتاه ! لقد حذرتني من ثلاث بثلاث : من الفقر بالعلم ، ومن الغربة بحفظ اللغات ، ومن لقاء الرجال بالسلاح . ولكنك لم تحذرني من المرأة التي قد تكون سبباً في كل أولئك »

ولم يكد ينتهي من هذا الخاطر العجيب الذي مر بذهنه بأسرع مما يمرق السهم وأمضى ، حتى سمع صوت رجل يتكلم مخاطباً لادي شارلوت ، فكادت دقات قلبه تقف فجأة لا رعباً من الخطر ، ولكن إشفاقاً على محبوبته التي خيل إليه أنها في براثن الهلاك . فرفع جيوفاني ذلك الستار بأطراف أنامله ، فرأى رجلاً في صورة أعيان السكسون ،

يشبه شيوخ السيناتو فى رومة القديمة ولوردات الانجليز فى لندن الحديثة ، وقد بدا فى أشعة مشكاة صغيرة تضيء ظلام الغرفة فى ثياب تشبه ثياب النسّاك ، وله وجه ورأس أشبه الأشياء برأس اللادى ووجهها ، وقد تدلت على صدره لحية لم يستبن جيوفانى لونها على حقيقته . وكان الرجل على خلاف المألوف فى الانجليز ، أميل إلى السمن منه إلى النحافة ؛ وكان يتكلم بصوت خافت ولكنه صوت الرجل الوديع العالم الذى لم يتعود الصخب ، ولكنه صوت من إذا قال فعل ، وإذا أراد نفذت إرادته ؛ وكان أثناء كلامه يدلف إلى اللادى ثم يعود القهقرى ، فإذا دلف حرك رجليه على هيأة قوس من دائرة يتوهمها ويرسمها بساقيه إذا خطا . ثم يحدق بالنبيلة الانجليزية بعينين ضيقتين ولكنهما براقتان . وكانت اللادى تنصت فى رعب تحاول إخفاءه وراء ثوب شفاف من الهدوء . فلم يجد جيوفانى سبيلاً لاستعمال مسدسه حيال هذا الشيخ الجليل الثابت الجنان ، ولا سيما بعد أن سمع كلامه بانجليزية بالغة الوضوح نقية اللهجة ، فأصغى جيوفانى فى حال بين اللذة والقلق إلى كلماته متنقلاً بحدقتيه اللتين مدتهما الرهبة ، من وجه محبوبته الشاحب إلى وجه الشيخ الملتهب . كان وجه شارلوت شاحباً ولكنه كان ثابت التقاطيع فلم يعرها ما يعرو الخائفين من رعشة أو اهتزاز أو تقلص فى العضلات . وكان الشيخ يتكلم كما لو كان يملى وصيته الأخيرة قبل ذهابه إلى ساحة القتال . قال الشيخ بصوت يلقى على رقته فى النفس الروع :

« إن وجود لادى شارلوت برنهارت حفيدة دوق مالبرو وسليلة بيت الوردة البيضاء ، صاحبة العفة وربة التقوى وتاج الصون فى هذه البقعة المقدسة لمن أجل الاشارات إلى هطول البركات ووفور الخيرات ، ولكن التقاليد صريحة فى وجوب إقصاء الذين يلحقهم الدنس وتمسهم شوائب الرجس ، لا فرق فى هذا بين العبد والأمير ، فأستحلفك يابنت برنهارت باسم القوة السماوية التى تستمدين منها وجودك الذاتى لتقولن لى الصدق فيما أنا سائلك عنه : أأنت طاهرة أم ملوثة بأدناس ... العاشقين ؟

قال هذا ووقف تجاه النبيلة يحدّ فيها بصره ، كأنه يريد أن تصل نظراته إلى أعماق نفسها ، فأحفظها القول وغاظها وكسر بالها ، فتبدل شحوبها بحمرة شديدة وغلى دمها فى عروقها ، وأسرع نبضها تبعاً لخفقان قلبها ، وطفق نهداها الرمانيان (اللذان لم يخضعا لقانون التضخم والهبوط بفضل حمّالة من الحرير الأزرق مصنوعة حسب آخر أزياء باريس) طفق هذان النهدان يصعدان ويهبطان استنكاراً لكلام تأبى أن تتقبله من إنسان كائناً من كان ، واستنكاراً لمعاملة لاتليق بكرامتها . واستقر في خلدها أن بعض أعدائها دبر لها مكيدة للوضع من مكانتها ، فصوروا لها رجلا على صورة والدها (لورد ريبفا نونكل أوف درومدرى أند كولو سترم) ليوهموها بتقمص الأرواح واقتفائهم أثرها لينغصوا عليها حياتها وحبها ، فوطنت النفس على مفاجأة الشيخ بما لم يكن فى حسابه من الشجاعة

ورسوخ القدم والقول المقذع ثم أنشأت تتكلم فقالت :

— ليس من عادة الشرفاء أن يخاطبوا من لاتربطهم بهم علاقة ما — دع عنك أواصر المعرفة الوثيقة ـ بمثل ماتكلمت به أيها السيد المحترم ، فضلا عن أن يدخلوا البيوت من غير أبوابها ، أو يغشوا المراقد فى مثل هذه الساعة من الليل ... أوالصباح!! فان لم تكن أنت ياسيدى قد سمعت صياح الديك فقد سمعته أنا وملأت نفسى بعد أذنى بجميل نغمه ... فحدق الشيخ فيها بعين الارهاب والتهديد ، وتربد وجهه تربداً تغيرت به بهجته ، وتنكرت بشاشته ، فأمسكت لادى شارلوت عن الكلام بعد أن ظن جيوفانى أن الغلبة لها ، إلا أن هيبة منظره لم ترعها ، فتجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن يرى لادى شارلوت لاتقيم له وزناً ولا ترعى له حرمة ؛ واحتدمت فى نفسه نار الغيظ وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردى من خلال بشرته الصافية الأديم ؛ إلا أن الشيخ أو الشبح رأى أن يكظم هذا الغيظ ويأخذ بالأناة في الأمر ، فأعاد السؤال الأول في صيغة لطيفة الديباجة ظاهرة المعنى فقال :

« أعيد عليك سؤال الأرواح التي أنابتنى عنها في بقعتها هذه : هل جئت إلى هنا تبغين التطهر من الدنس ، أم أنك طاهرة ؟

فأجابت بصوت جهير : سأجاوبك على هذا السؤال . قال : إذا جاوبت والدك الماثل أمامك فإنما تجاوبين الأرواح ولا أزيد ، وإنى لآمرك أن تبرحى ياشارلوت — بياتريس . روز . بلانش . تيريز — أن تبرحى هذه البقعة المقدسة التى لوثتها أقذار الأحياء قبل أن تندلع النيران في أركانه ، وتنقض جدرانه ، وتندك حوائطه ، وتتحطم تحفه ، وتقفر مغانيه ، وتتهدم دعائمه ، وتحترق أشجاره وأعشابه ، فيصير أخضره يا بساً ، وباسمه عابساً

لقد كان في مقدورنا أن ننزل بك ما ننزل دون إنذار كما تحط السماء بلا إبراق وإرعاد ، ولكن بقية باقية من الشفقة ألهمتنا هذا التحذير فجئنا به ، وستعلمين نبأه بعد حين ! فارتاعت لادى شارلوت لهذا الكلام وقالت : هأنذي ماضية فى سبيلى ؛ ثم دنت من الباب فاذا بها تبصر جيوفانى واقفاً مبهوتاً مرتاعاً ، لأن ما سمعه من قولها ليس من الهنات الهينات ، إذ كان يعلم أن لادى شارلوت تؤمن بخلود الأرواح وبسطة نفوذها وقوة بطشها ، وتيقن بأن لبعضها غلبة وقهراً تعنو لها جباه الجبابرة ؛ فخشى جيوفانى أن تكون محبوبته قد خرقت بثبات جأشها وقوة حجتها سياج هذه القوة الغامضة ، فوضعت من قدر الروح الممثل أمامها فى نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصة الأرواح المتصلة بالعالم الأرضى ، والتى لم ترتب فى مشاركتها فى استطلاع هذا المنظر الليلى العجيب

هل كان جيوفاني حالماً ، أم كان يقظاً ؟ هل كان هازئاً ساخراً ، أم مؤمناً جاداً ؟ ولكنه أيقن

أنه في صحو وفي يقظة لأنه رآها تومئ له إيماءة أدرك معناها ، وكان المهندس الايطالى (سنيور جيوفانى كما كانت تدعوه صديقته فى أوقات دعابتها) يحلق بفكره ساعتئذ فى جو الخيال ، فأنبهته الإيماءة من غفلته ، فأخذ يرشق اللادى شارلوت بنظرات تشف عما فى فؤاده من الهيام والخوف عليها . فأيقن الشيخ أن بين الاثنين سراً لا يفسره إلا ارتباط قلبيهما برباط الحب الوثيق ، فارتعد غيظاً وصوّت باللادي شارلوت أن تقف وأن تصغى إليه ، ففعلت ناظرة إليه بعين المستفهم عن سبب استرجاعه إياها وهى ماضية فى طريقها إلى مخرج من حضرته كما أمرها

وطالما سأل جيوفانى نفسه بعد ذلك هل كانت تنوى العود إلى أحضانه في فراشها ، أم تنوى تغيير قميص الليل بثياب النهار لتغادر ذلك القصر الذى وصفه الشبح الانجليزى بأنه « بقعة مقدسة » ؟ وطالما علل نفسه بسؤالها بعد جوازهما تلك العقبة وتخطيها هذه المحنة التى قصر أمدها وطال ألمها . ولكن الفرصة لم تسنح له لياقى على محبوبته هذا السؤال ، دأب العشاق الذين يشغلون بحبهم عن أنفسهم وعن غير أنفسهم

قلت : ظل الشيخ حينما انكفأت اللادى شارلوت إلى غرفتها يشيعها بنظره فيبصر بها فقال :

« أنت تظاهرين الأرواح بالعداوة والتعدى ! »

والمتبادر إلى الفهم أنه لم يزين لك هذه الغواية ويتركك فى هذه العماية إلا حليف لك هو الآن يرأى منا ومسمع ، ونظر صوب جيوفانى فارتعدت فرائصه وخارت قواه ، لا جبناً ولا وهناً ولكن رهبة من هيبة الشيخ الوقور . ولم ينفعه علمه بأن لادى شارلوت هي التى أحبته واستغوته واستدرجته وبذلت جهوداً جبارة فى رومه ، وفى لندن ، وفى فيرنزة ، وفى برمنجهام ، حتى حولت تيار المودة بينهما من الصداقة إلى المحبة ، ومن التلذذ بالحديث العذب والمجلس الأنيق فى المثوى الفاخر المنعم إلى الحب العميق والعشق الساحر . ولم يهدئ من روعه علمه بأن لادى شارلوت تكبره بسنتين فهى فى حدود الأربعين وهو ما زال في السابعة بعد الثلاثين ، كما أنها بحكم نشأتها وتعليمها ومحيطها ومستواها تفوقه فى الخبرة والتجارب ؛ ولعلها أذكى منه خاطراً وأسرع إدراكاً وأحضر بديهة وأوسع اطلاعاً ، فكم مملكة زارت ، وكم رجل خطير عرفت وعاشرت ، وكم كتاب قرأت ، وكم معضلة عرضت لها فحلت ، دع عنك ما ركز فى طبيعتها من المكر الحسن ... والسيء ! !

كان جيوفانى رجل حق وصدق ، سليم الفطرة طيب القلب ، أبغض شيء لديه الكيد والخداع ؛ وكان نابغاً فى عمله يتقنه ويبرز فيه حتى يبذ معاصريه وقرناءه ، ولكنه كان يغلب لشارلوت إذا لاعبها الشطرنج أو نازلها فى ميدان التنيس أو سكواش راكيتس ، كان يفوقها فى المنطق وتفوقه في السفسطة والدعابة ، وقد عاشرها على حذر إلى أن استبان إخلاصها ووفاءها ـ والمرأة إذا أحبت أخلصت ووفت ، وكانا الخلتين رهينتان بحبها ؛ فإذا مات الحب نضب معين الفضائل التى كان الحب يغذيها وينعشها ، أما الرجل فلا ينسيه غروب شمس حبه شيئاً من مكارم أخلاقه التى كان يغمر بها محبوبته لعهد الغرام . ونعل شعوره بانتهاء الحب وانحلال الرابطة الوثيقة التى كانت بينه وبين « أنثي » من جنسه يثبه فيه عواطف الشفقة والحنان والرحمة ،

ورسوخ القدم والقول المقذع ثم أنشأت تتكلم فقالت :

— ليس من عادة الشرفاء أن يخاطبوا من لاتربطهم بهم علاقة ما — دع عنك أواصر المعرفة الوثيقة — بمثل ماتكلمت به أيها السيد المحترم ، فضلا عن أن يدخلوا البيوت من غير أبوابها ، أو يغشوا المراقد فى مثل هذه الساعة من الليل ... أوالصباح!! فان لم تكن أنت ياسيدى قد سمعت صياح الديك فقد سمعته أنا وملأت نفسى بعد أذنى بجميل نغمه ... فحدق الشيخ فيها بعين الارهاب والتهديد ، وتربد وجهه تربداً تغيرت به بهجته ، وتنكرت بشاشته ، فأمسكت لادى شارلوت عن الكلام بعد أن ظن جيوفانى أن الغلبة لها ، إلا أن هيبة منظره لم ترعها ، فتجلدت له وأظهرت من ضروب الاستخفاف بتهديده وإرعاده ما جعله يكبر عليه أن يرى لادى شارلوت لاتقيم له وزناً ولا ترعى له حرمة ؛ واحتدمت فى نفسه نار الغيظ وانتفخت بسببه عروق جبهته حتى بدا لونها اللازوردى من خلال بشرته الصافية الأديم ؛ إلا أن الشيخ أو الشبح رأى أن يكظم هذا الغيظ ويأخذ بالأناة في الأمر ، فأعاد السؤال الأول في صيغة لطيفة الديباجة ظاهرة المعنى فقال :

« أعيد عليك سؤال الأرواح التي أنابتنى عنها في بقعتها هذه : هل جئت إلى هنا تبغين التطهر من الدنس ، أم أنك طاهرة ؟

فأجابت بصوت جهير : سأجاوبك على هذا السؤال . قال : إذا جاوبت والدك الماثل أمامك فإنما تجاوبين الأرواح ولا أزيد ، وإنى لآمرك أن تبرحى ياشارلوت — بياتريس . روز . بلانش . تيريز — أن تبرحى هذه البقعة المقدسة التى لوثتها أقذار الأحياء قبل أن تندلع النيران في أركانه ، وتنقض جدرانه ، وتندك حوائطه ، وتتحطم تحفه ، وتقفر مغانيه ، وتهدم دعائمه ، وتحترق أشجاره وأعشابه ، فيصير أخضره يابساً ، وباسمه عابساً

لقد كان في مقدورنا أن ننزل بك ما ننزل دون إنذار كما تمطر السماء بلا إبراق وإرعاد ، ولكن بقية باقية من الشفقة ألهمتنا هذا التحذير فجئنا به ، وستعلمين نبأه بعد حين ! فارتاعت لادى شارلوت لهذا الكلام وقالت : هأنذي ماضية فى سبيلى ؛ ثم دنت من الباب فاذا بها تبصر جيوفانى واقفاً مبهوتاً مرتاعاً ، لأن ما سمعه من قولها ليس من الهنات الهينات ، إذ كان يعلم أن لادى شارلوت تؤمن بخلود الأرواح وبسطة نفوذها وقوة بطشها ، وتيقن بأن لبعضها غلبة وقهراً تعنو لها جباه الجبابرة ؛ فخشى جيوفانى أن تكون محبوبته قد خرقت بثبات جأشها وقوة حجتها سياج هذه القوة الغامضة ، فوضعت من قدر الروح الممثل أمامها فى نظر من سمع هذا الحوار بينها وبينه من خاصة الأرواح المتصلة بالعالم الأرضى ، والتى لم ترتب فى مشاركتها فى استطلاع هذا المنظر الليلى العجيب

هل كان جيوفاني حالماً ، أم كان يقظاً ؟ هل كان هازئاً ساخراً ، أم مؤمناً جاداً ؟ ولكنه أيقن

ولو أن المرأة التي كان يحبها أمهلته ولم تعرقل عواطفه بغيرتها وغيظها لرأت منه فوق ما عودها من الرأفة والشفقة ، ولكن المرأة ، ولا سيما إذا كانت ذكية الفؤاد ذات حساسية ، تجعل من القطيعة مسألة نفسانية ذات علاقة بالكرامة ، فلا تقبل من « قطيعها » من الأيادي ما كان يسدى إليها سابقاً ، وتفضل أن تجوع وتعرى على أن تتلقى معروفه وجمائله . على أنها في ذلك لا تتبع إلا خطة ثابتة في نفسها ، إذ يندر أن تلقى بالإحسان من كانت تحب ، بل تفتر لدى لقائه وقد تتنكر له ، ولا ينفع معها التذكير والتفكير ، ولا يهمها أن تعود بخاطرها إلى ما كان بينهما من أيام الهناء وليالي القرب الأدنى . ويخطئ من يلومها أو يحقد عليها ، فعذرها تعلقها بحريتها وبغضها الخضوع لسلطان رجل كان بالأمس سيدها بحكم الحب ، وخلعت اليوم نيره راغبة أو مرغمة ، فهي تنتظر أن تلقى سواه وتعلق به وتحبه فهي تعد قلبها للإيجار أو للبيع فتفعل ما يفعل المالك عند « خلو » داره من ساكن من غسل ومسح ورش وكنس وتبييض وتلوين وتعليق لوحة للإيجار ... ولا تقل المرأة « الخالية » عن المالك غيرة على استثمار « البيت الخالي » ، فإن طاف بالساكن الجديد محسناً ومعظماً ومبالغاً في قيمة الدار وزينة الغرف وجمال الوضع وتنسيق البهو وحسن الشرفات فهي الأخرى لا تنى في إظهار محاسنها الظاهرة والخفية بشتى الوسائل حتى تقنع الراغب أو المرغوب فيه بالسكنى

كل هذه الخواطر مرت بذهن جيوفانى في تلك اللحظة الرهيبة وهو يصغي إلى صوت الشيخ وهو يكمل حديثه :

« لهذا أنذرك أيتها العقيلة (وهنا قال جيوفانى عجباً لهؤلاء الانجليز ، حتى أشباحهم لا تنسى آداب الحديث في أحرج المواقف) الجامحة في الضلالة بأن الأرواح لا تتجاوز عن ذنبك إلا إذا رجعت إليهم بحسن التوبة » ثم صعد نظره في جيوفانى وأومأ إليه بسبابته قائلا ، ولكنه قبل أن يتمكن من النطق بحرف واحد بادره جيوفانى بكلمة قاطعة :

« أيها الشيخ الجليل أو الشبح المضيء أو الروح الخالد ، وسامحني إذا لم أعرف كنهك لأخاطبك باسمك وألقابك ، دع عنك بالله تأنيبي واهدنا أولاً إلى مقر الآنسة دولى برنهارت ، فهي التي بسببها جئنا إلى هذا المكان ، وزحنا إلى تلك البقعة التي تصفها بالقداسة ، فأنت تعلم أنها مفقودة وأن أمها جاءت تبحث عنها ؟ فان كنت جدها وهي حفيدتك فأنت أولى الناس بالارشاد إلى مستقرها .

الفتاة المفقودة

وقد كان سؤال جيوفانى في صميم العاطفة ، وصدى للوعة الأم التي قصدت إلى ضفاف النيل لتبحث عن عشيقها ففقدت ابنتها . وكان جيوفانى يلتمس عذر الطيران في السماء الصافية بحجة البحث عن العذراء الغائبة

فعند ما جبه جيوفانى الشيخ الجليل أو شبح لورد كولوسترم ، والد لادى شارلوت بالسؤال عن (دولى) مستقرها ومثواها ولمح له من طرف خفي أن الاستدلال على الفتاة المفقودة خير من الظهور للأم في سيما والد هملت ، وتقريعها قبيل الفجر على أمور لم تعرف كنهها ولم تقف على مدى خطأها فيها ؛ وظن جيوفانى أنه بهذا التوجيه الكيس قد صدّ تيار

لادى شارلوت منذ احتلته هي وصاحبها ... صلاة الصباح ولكنها لم تكن صلاة الصبح بل كان إنذار اللهب الذى اندلع فى ناحيات القصر فى لحظة واحدة ، وصفير النار التى اشتعلت فى الأثاث والرياش ، وتحقيق الوعيد الذى جاء على لسان الشيخ الذى قال إن النار المحرقة تطهر كل شئ حتى القلوب التى فى الصدور!

* * *

وكان الشيخ العربى يقص قصته الخلابة ونفسى سابحة فى عالم الأحلام ، فكنت أغمض عينى لأتخيل الحقيقة التى يرويها . فإذا ما فتحت عينى رأيته فى مجلسه وسمعته يقول :

« أما القصر الذى طالما قرأ القارئ اسمه ، وعلم من أنباء الحوادث التى جرت بها الأقدار فى أبهائه وغرفه ما علم ، وإن لم يقف على تفصيل وصفه فقد وقعت لنا صور زيتية وأخرى شمسية تمثل معالمه وأطلاله ، كما وقفنا على نبذ وجيزة وأخرى مسهبة فى وصفه دونت ببعض صحف التاريخ الحديث وروايات أسفار السائحين الذين سعوا إليه وساعدهم الحظ بدخوله والتنقل بين غرفه قبل أن تمتلكه لادى شارلوت لتستقبل فيه حبيبها جيوفاني . فاستخلصنا من تلك المصادر وصفاً صادقاً وإن يكن غير بالغ شأو حقيقته فما راء كمن قرأ أو سمع

« كان السائر على شاطئ النيل بمقربة من الدير البحري الذي شادته الملكة المسترجلة حاتشبسوت يرى بناء صغيراً يكاد يكون كالأمير المتخفى »

محمد لطفى جمعة

الكستور المصرى هدية الموسم

حديث المجالس . والأوساط التجارية . ناعم الملمس . متين المحبر

ثابت الصبغة . متعدد النقوش . معتدل السعر

صنع شركة مصر للغزل والنسج بالمحلة الكبرى

أكبر وأحسن مجموعة يخرجها مصنع الشركة بالمحلة الكبرى خصيصا

لشركة بيع المصنوعات المصرية وفروعها